واقع الجزائر اللساني
بين التعدد و التعقد

من ينظر إلى واقع الجزائر اللساني اليوم – وفي الأمس القريب و حتى فيما مضى – يلاحظ تميزه بتعدد الألسن (plurilinguisme) داخل المجتمع ، والتعدد هذا هو ظاهرة عالمية نجدها في القارات الخمس ،وفي بلدان مشهورة كفرنسا وسويسرا ، وكندا وأمريكا الشمالية، وفي جميع دول المغرب العربي ، وإن كان التعدد في ليبيا باللغة الإيطالية ، وفي موريتانيا بالإسبانية،وفي تونس والجزائر والمغرب باللغة الفرنسية، لاختلاف المستعمرين ولغاتهم ، وهذا أمر تاريخي و آثار ه كذلك. وفي نظر اللسانيات المعاصرة و التوجه العالمي للإقتصاد والثقافة و العلوم و غيرها – وهو ما يسمى "بالعولمة" (Mondialisation)-فإن تعدد اللغات في بلد واحد نعمة لها لا نقمة عليها ، لأنه يجعل من مواطنيها أكثر تفتحا على الآخرين ، وأكثر استعدادا لاستيعاب أفكارهم ، وآدابهم و علومهم و تقنياتهم ، وأقدر على ممارسة التبادل في شتى المجالات، و لا سيما في الميدانين التجاري والسياحي، وأقرب إلى تجسيد العولمة في ذواتهم ، بعدما صار العالم ، بفضل تطوير وسائل الاتصال و التواصل (كالأنترنت والشبكات الاجتماعية)، أشبه بقرية كبيرة للآدميين يلجها من شاء و متى شاء .

فما هي ، إذا ، المكونات الأساسية لهذا الواقع اللساني في جزائر اليوم.

1)مصادر التعدد اللغوي :

هـــي أربـــعـــــــة :

أ - المكون الأول تاريخيا : الأمازيغية :

سميت قديما "بالبربرية" (Berbère)نسبة إلى أصحابها "البرابرة"، وهي لفظة أواسم مشتق من أصل لاتيني (Barbarus)، بمعنى غير المثقف وغير الروماني.

كما استعمل اليونانيون، قبل ذلك ، لفظة مشابهة (Barbaros) وأطلقوها على سائر اللغات التي لا يعرفونها أو لا يفهمونها ، مشبهين إياها "بزقزقة العصافير". و الواضح أن مثل هذا السلوك إزاء لغات غيرهم ليس سلوكا حضاريا، ولا يمت بصلة إلى الحقائق اللسانية التي تختلف بموجبها ألسنة الناس بحسب انتمائهم العرقي والجغرافي .

وقد استبدلت لفظة "البربرية" ذات الدلالة السلبية و حلت محلها لفظة الأمازيغية(Tamazigh)والأمازيغImazighen)(-بمعنى الأحرار- لرد الإعتبار إليهما. وقد ثبت أن الشيخ البشير الإبراهيمي مثلا كان يفضل استعمال كلمة " أمازيغ" في كتاباته ، فجاء الاستبدال موفقا لا يمكن إلا مباركته.

ومن المعلوم أن " البرابرة" هم السكان الأصليون لشمال إفريقيا منذ العهود الغابرة ، يختلفون ببياض بشرتهم عن سكان قارة إفريقيا السود ، و بلغتهم التي كانت تنقسم إلى لهجات ، تبعا للتقسيم القبائلي والجغرافي، ولكن الأصل اللساني واحد ، وهو الحامي السامي (Chamito-pémitique) .

ولئن تعددت لهجات أمازيغ الجزائر و اختلفت بين سكان القبائل (kabyles) ذوي الأصول الصنهاجية ،والتوارق (Touareg)والميزانيين(Mosabites) وغيرهم، كما اختلفت كتاباتهم لها بين نظام الكتابة الليبي (Lybique) ونظام التيفيناغ (Tifinagh)، فإن محاولة توحيد الكتابة مؤخرا، بتبني الحروف اللاتينية، مع استعمال بعض الرموز، قد تكون من الأسباب المساعدة على ترقية الأمازيغية المشتركة (القبائلية في التعليم) ، وجعلها مستقبلا لغة العلم و مفخرة لذويها ، ومحبيها و المتعاطفين معها.

و لا بد من الإشارة هنا إلى أن الأمازيغية –و لا سيما القبائلية – دخلتها ألفاظ عربية كثيرة ، و خاصة الإسلامية منها بحكم التعايش السلمي بينهما لمدة قرون.

و تحتل الأمازيغية الآن المرتبة الثانية بعد العربية ، باعتبارها لغة معترفا بها قانونا ، و إن كان انتشارها محدودا جغرافيا بحسب نسبة كثافة سكانها (مابين 20% و 30%) ، بخلاف العربية المنتشرة في كل ربوع الوطن. ومن حيث التعليم، فإنها تحتل المرتبة الثالثة بعد الفرنسية، لأن الإقبال على تعلمها أضحى ضعيفا .ولعل الحاجز النفسي لدى الناشئة المتمثل في السؤالين الآتيين : لماذا تصلح ؟ و ما ذا يفعل بها ؟ وفي تبني نظام الخط اللاتيني ، بدلا من العربي الذي يقربها منهم ، هو الذي سيحول – و يا للأسف !– دون انتشار تعلمها و شيوعها بينهم.فالفارسية مثلا مازالت تستعمل الحروف العربية ، وإن تخلت عنها التركية مع أتاترك(مصطفى كمال). وليس في نقص الأصوات العربية حجة معقولة، لأن الأمر نفسه ينطبق على الحروف اللاتينية ، و إلا لما طعمت بالرموز.

ب -المكون الثاني تاريخيا : العربية :

العربية سامية الأصل من الفصيلة نفسها التي تنتمي إليها الأمازيغية ، و هي لغة قديمة حافظت دون سواها ، على خصائصها السامية إلى يومنا هذا. وقد انتشرت في شبه الجزيرة العربية في الجاهلية الأولى وما بعدها عدة لغات- قد نسميها اليوم "لهجات"-موزعة قبليا وجغرافيا آتية كلها من معينين : العربية الشمالية القحطانية- ومنها لغة حمير – و العربية الجنوبية العدنانية – و منها لغة الحجاز- و قد كانت بينهما اختلافات كبيرة في خصائصهما (كالاختلافات الصوتية واللفظية والتعبيرية)، حتى قال اللغوي عمرو بن العلاء : "ما لغة حمير بلغتنا و لا عربيتهم بعربيتنا ".

و قد شاء للغة قريش الحجازية لأسباب دينية واقتصادية و أدبية ، فقد كان بحوزتها سدانة الكعبة ، وقوافل التجارة شتاء و صيفا ، ولغة مثالية جيدة في ألفاظها وتعابيرها ، شاء لها أن تصير لغة العرب قاطبة ، بعد أن كانت لغة الشعراء والخطباء. وقد زاد من هالتها وقيمتها نزول القرآن الكريم بها على النبي القريشي محمد (ص) ، فثبتها على حساب سائر اللغات المنافسة لها ، وهو الذي حافظ و سيحافظ عليها إلى أن يرث الله الأرض و من عليها .

كما تطورت هذه اللغة الحجازية والخط العربي على مر السنين ، فقد دب إليها اللحن في القرن الهجري الأول من قبل العوام والمستعربين الذين دخلوا إلى الإسلام ، واضطروا إلى تعلم العربية – وقد يكون في هذا بذور نشوء العامية –ثم ولجها المولد في العهد العباسي ، سواء كان من المستحدث من اللفظ ، أو من المحرف منه ، أو من البعيد عن الفصاحة،ثم تواصل تطورها في العصر الحديث ، بما يلائم متكلميها الميالين إلى السهولة في الألفاظ والأصوات والتراكيب .

هذه هي حال اللغة المعاصرة أو الوسطى (Langue médiane) التي ليست بالفصحى تماما- سميت كذلك لاشتهارها بالفصاحة و لتمييزها مع لغات العجمة- ولا بالعامية أيضا، فهي منزلة بينهما: فيها الخصائص الأساسية للفصحى القديمة (Classique) في صرفها ونحوها، وفيها التيسير الحديث في بعض أصواتها، وفي ألفاظها – ما سهل منها ما لاغرب- و تراكيبها ، فضلا عما أتاها من تأثير الإحتكاك بلغات المستعمر.وهي اللغة السائدة في التعليم بكل مراحله ، وفي وسائل الإعلام والبث الإذاعي والتلفزي، و في الملتقيات العلمية و التربوية ، وفي خطب الأئمة وبعض الساسة و في التواصل مع العالم العربي ، مشرقه و مغربه .

تاريخيا ، لقد دخلت الفصحى إلى شمال إفريقيا مع الفاتحين العرب ، بقيادة عقبة بن نافع (ت63هـ) ، ثم مع موسى بن نصير (ت97هـ) ، فاحتضنها السكان الأصليون و تعلموها لتأدية الشعائر الإسلامية ، ثم أتقنوها ، فتألقت في سماء الجزائر آلاف أسماء الشعراء والعلماء والفقهاء الفطاحل، ولم تحدث أبدا أي فتنة في هذا التعايش اللغوي ، إلى أن جاء الاستعمار الفرنسي ، فاستعمل سياسة التفرقة ، ووجه بعض مستشرقية إلى الإهتمام بالعاميات (نحو: ويليم مارسه **ومنطوق تلمسان**) و تأليف المعاجم فيها والكتب لتعليمها (نحو ديسبارميو **تعلم العامية بالطريقة المباشرة**).وكانت سياسته العنصرية واضحة قائمة على محاربة العربية والإسلام للقضاء عليهما ، حتى يتسنى له فرنسة الجزائر والجزائريين، ولكن الأحزاب السياسية والحركات الوطنية وجمعية العلماء

المسلمين قاومت تلك الخطة اللعينة بالفكر والقلم، وانتهى الأمر بثورة تحريرية دامية حررت الشعب ، و خلصته من براثن الإستعمار الغاشم.

وقد استقدمت الجزائر في السبعينيات من القرن الماضي ، للحاجة و الضرورة ، متعاونين عربا من مصر، وسوريا وفلسطين ، لتأطير النشء في التعليم الثانوي ، وفي الثمانينيات وما بعدها في التعليم العالي لسد العجز في مختلف العلوم- حتى الانسانية منها- ثم تمت تدريجيا جزأرة سلك التعليم بجميع أطواره و أشكاله.

وهكذا صارت العربية بعد الاستقلال اللغة الرسمية الأولى والوحيدة في الجزائر، كما نص على ذلك دستور 1976، باعتبارها أحد مكونات الهوية الوطنية ومن ثوابت الأمة التي لا يحق لأي كان المساس بها ، ومن رموز الوحدة الوطنية . وهي لغة التعليم والتعلم بلا منازع ، لغة قادرة على حمل العلوم والتعبيرعن التكنولوجيا ، لأن العيب في تخلف اللغات يعود أساسا إلى متكلميها ، فإن هم تطوروا تطورت ، وإن تخلفوا تخلفت. وهي اللغة الثالثة عالميا ومن اللغات الرسمية في المنظمات الدولية والإقليمية .

ج- المكون الثالث تاريخيا : العامية :

من حيث الاشتقاق : العامية مصدراصطناعي من (العامي) نسبة إلى لغة العوام أو العامة ، مقابل لغة الخواص أو الخاصة. والدارجة اسم مؤنث دال على ما درج أو جرى على ألسنة الناس ، و اللهجة (Dialecte) اسم مؤنث كذلك بمعنى لغة الانسان التي جبل عليها واعتادها.هذه كلها مصطلحات، وإن اختلفت اشتقاقاتها ، فهي دالة على شيء واحد،أي على لغة معينة معتادة مألوفة منذ الطفولة الأولى ذات الارتباط بالنطق والكلام لا بالكتابة . وهي ظاهرة لا تخص العربية وحدها ، وإنما نجدها في لغات أخرى مثل لغة السوقة (Argot) في الفرنسية . وقد اهتمت اللسانيات الحديثة بها ، فنشأ علم اللهجات Dialectologie() الذي يعني بها ، وظهرت

اللسانيات الجغرافية (Géographie linguistique) في نهاية القرن التاسع عشر،التي استعانت بالخرائط لمعالجة الظواهر اللهجية و اللسانية .

و العاميات العربية فرع أصلها الفصحي ، تولدت منها –كما تولدت اللغات اللاتينية من اللاتينية- وسلك أصحابها فيها سلوكات مخالفة أو مغايرة لها ، وذلك لعدة أسباب :

- منها ما هو جغرافي لبعدهاعنهم في المسافة .
- و منها ما هو مكاني لشساعة انتشارها وامتداد أجوائها في آسيا وإفريقيا .
- ومنها ماهواجتماعي لتعدد المجتمعات العربية و اختلافها في السياسة والمعيشة.
- و منها ما هو فردي لجنوح المتكلم إلى السهولة في النطق والتعبير .

هذه العوامل مجمعة شاركت في نشوء العاميات العربية وانفصالها عن الفصحى. و توجد في الجزائر عاميات بالجمع تختلف باختلاف الجهات من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ، و قد تختلف حتى داخل الجهة الواحدة.

و لكن ، متى نشأت هذه العاميات ؟ وفي أي ظروف تاريخية ؟ قد تعود نشأتها في الجزائر إلى ما قبل العهد العثماني أو أثناءه على أضعف تقدير. والمعروف عن العثمانيين أنهم لم يفرضوا لغتهم التركية على الجزائريين، طيلة القرون الثلاثة التي عاشت الجزائر تحت نفوذهم ،وحتى الجالية الباقية منهم لم تحافظ على لغتها الأصلية،ولا تزال تستعمل عاميات الجزائريين، مما يثبت، دونما شك، قدم هذه العاميات.

فماهي ، إذا ، وضعية العاميات و مكانتها في وسط هذا التعدد اللغوي ؟ في الواقع هي لغات الأمهات التي يعلمنها لأبنائهن منذ ولادتهم ، فيستعملونها داخل المحيط الأسري و خارجه، و في التواصل اليومي، بعد كبرهم ،مع غيرهم ، و لا تنافسها في ذلك لا الفصحى و لا الفرنسية .

أما خصائص العامية عموما ، فتتمثل في الخروج عن قواعد الفصحى بإسقاط الإعراب و استبداله بالتسكين في الفعل و الاسم ، و تبسيط التصريف إلى أدنى الضمائر، و إهمال بعض الأصوات (كالضاد، والثاء، والذال، والظاء و إبدال القاف) ، و اللجوء وإلى الألفاظ الأجنبية الفرنسية خاصة وقليل من الإسبانية والتركية، وإضافة بعض اللواحق في الفعل والظرف والتميز في النطق. وتعد لهجات الجنوب الجزائري أقرب إلى الفصحى من غيرها .

د- المكون الرابع تاريخيا : الفرنسية :

تتسبب الفرنسية إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية و إلى أسرة اللغات اللاتينية، وهي حديثة النشأة نسبيا تولدت من اللاتينية ، ثم تطورت في العصر الكلاسيكي ، ووضعت لها أثناءه القواعد وأول معجم معروف "بمعجم الأكاديمية الفرنسية" ، وصارت في القرن الثامن عشرلغة عصر "النور والتنوير " ، وفي القرن التاسع عشر لغة المذاهب و الفنون الأدبية الرائدة على شاكلة الرواية بكل أنواعها ، و في القرن العشرين لغة العلوم الإنسانية .

دخلت لغة فولتير الجزائر سنة 1830 ، مع الحملة العسكرية الفرنسية ، وكانت لغة المستعمرين عسكريين ومدنيين، ففرضوها في الإدارة والتعليم والصحافة ، وتعلمها بعض الجزائريين لسبب أو لآخر،فصارت في أيديهم وسيلة لمقاومة المستعمر والتعريف بأهداف الثورة التحريرية .

ولما استقلت الجزائر، وخرج المستعمر منها ، بقيت لغته "غنيمة حرب" ، وظلت مستعملة في التعليم والإدارة والقضاء ووسائل الإعلام ، و احتل العارفون بها أهم المناصب الشاغرة في دواليب الدولة .وقد طرح وجودها، منذ البداية ، مشكلات بين الناطقين بها والمعربين، ولاسيما حين تقرر منذ سنة 1973 تطبيق سياسة التعريب في التعليم والمحيط وغيرهما، وصدرت قوانين، بعد ذلك، لترقية العربية وتعميمها .

وحتى لو تم تعريب التعليم بكل أطواره من الابتدائي إلى الجامعي- باستثناء الشعب العلمية – فإن وزارة التعليم في إصلاحها الأخير أدرجت تعليم الفرنسية في السنة الثالثة ابتدائي والإنجليزية في السنة أولى متوسط ، جاعلة الأفضلية لها للسبب التاريخي المعروف ، و إن كانت الإنجليزية اليوم هي اللغة العالمية بدون منافس.

و إذا نحن أبعدنا السياسة والأفكار الإيديولوجية من الواقع اللساني، فإن وجود الفرنسية لا يشكل خطرا على العربية ، فهي وسيلة للتفتح على العالم ، ونافذة يطل منها المتعلم عليه، أو على الأقل على الجزء الناطق بالفرنسية في أوربا، وإفريقيا ، وآسيا وأمريكا الشمالية. وللفرنسية زاد معتبر من العلوم الإنسانية وغير الإنسانية. وسواء أحببنا أم كرهنا ، فهي لغة جزء من الجزائريين لهم الحق فيها ، وقد برع فيها ، كذويها، شعراء و أدباء ، و علماء و باحثون ، و أسماء روائييهاأشهر من علم .

2) مشكلات تعدد الألسن و تعقيداتها :

أ – بالنسبة إلى الأمازيغية :

- عقدة نفسية داخلية سببها تعدد الأمازيغيات وتوزيعها الجغرافي ، مما يجعل توحيدها في لغة مشتركة واحدة أمرا صعبا للغاية .
- عقدة نفسية خارجية تتمثل في كراهية- بعض متكلميها- العربية والعاميات الجزائرية،باعتبارها لغات أجنبية – بدلا من التعايش معها حضاريا ، مع تفضيل الفرنسية (اللغة الأجنبية الحقيقية) عليها .
- ليست الأمازيغية الحالية منافسة للعربيـة على المستوى التعليمي ، ولا للعاميات على المستوى التواصلي، وبقاؤها مرتبط بذويها ، وبكونها لغة وطنية.

ب-بالنسبة إلى العربية :

- مشكلة تعدد أنماط العربية بين الفصحى والوسطى، وبين نموذجها القديم وشكلها المعاصر الركيك منه و الراقي.

- بقاؤها على مستوىالكتابة وفي المؤسسات الرسمية ، مع أنها لغة حية صالحة نطقا وكتابة .
- منافسة العاميات لها ،باعتبارها أدوات التخاطب والتواصل الأسري والإجتماعي.

ج-بالنسبة إلى العامية :

- مشكلة تعددها حتى داخل الرقعة الجغرافية الواحدة ، مما يخل بالتواصل بها وفهمها من جهة إلى أخرى .
- لا خوف على مستقبلها في الأمدين القريب والبعيد ، مادامت الفصحى لم تتحول إلى لغة تواصل،وهذا أمر مستبعد جدا، لتشبث العامة بها: مشرقيا ومغربيا .

د-بالنسبة إلى الفرنسية :

- عقدة متكلميها إزاء العربية ونظرتهم الاحتقارية إليها من دون سبب موضوعي.
- مستقبلها مرتبط أكثر ببقايا المفرنسين المدافعين عنها دفاعا مستميتا ، ظالمة كانت أو مظلومة .
- منافسة الإنجليزية التي قد تزيحها ، ذات يوم ، لتأخذ مكانتها الثانية في التعليم ، مدعومة بشهرتها العظيمة ، كلغة العلوم و التقانية .

هـ مشكلات التعليم اللغوي و التعلم :

هي مشكلات الأمس و اليوم و غدا ، على الرغم من سياسات إصلاح المنظومة التربوية من حين إلى آخر ، و تنحصر، هي وحلولها، فيما يأتي :

- نوعية التأطير و كفاءة المؤطرين اللغوية والتربوية في تعليم اللغات للناشئة ، ورفع مستوى إتقانها ، ليكون تمكنهم منها جميعا في المستوى المطلوب .
- كثافة البرامج في جميع المواد ، ولا سيما في مواد الثقافة العامة على حساب المواد الأساسية في الإبتدائي (تعلم الكتابة والقراءة والحساب) ومواد التخصص

في المتوسط والثانوي .وهو ما يشكل ضغطا رهيبا على نفسية المتعلم و يزيده إرهاقا.

- التركيز على الفهم الجيد، بدلا من الحفظ حرفيا و حشو عقل المتعلم بكثرة المعارف-حتى الفلسفة تحفظ عن ظهر قلب- وتوجيهه إلى فهمها واستيعابها،للتحكم فيها روحا لا حرفا .فأسلوب الحفظ يتلاءم أكثر مع تحفيظ القرآن في المساجد و المتون الفقهية و النحوية في الزوايا .

- إعادة النظر في النصوص المقترحة –لاسيما بالعربية وانتقاء أجودها من التراث العربي و الإنساني، قديمه وحديثه، وفي شتى الموضوعات والميادين، للاستفادة من مصطلحاتها وتعابيرها وأفكارها، ولصقل الملكة اللغوية التعبيرية الشفوية منها والكتابية، بالمزاوجة بينهما ، حتى يغدو المتعلم قادرا على إدارة حديث، أو إلقاء خطاب أو تحرير نص أو رسالة ، ومن الأفضل ألا تكون هذه النصوص مصطنعة، مقابل مكافئ مادي ، لا تراعى فيها الشروط التربوية والجودة اللغوية .
- استغلال منهج المقاربة بالكفاءة لتعليم اللغات ، و تدعيمه في الإبتدائي بالوسائل السمعية البصرية ، و في المتوسط و الثانوي بالمخابر اللغوية .
- استعمال اللغة نفسها في تعليمها: العربية بالعربية والفرنسية بالفرنسية ، ولابأس من الاستعانة بالفرنسية في الإنجليزية ، فهما من فصيلة واحدة ، مع التبسيط في المرحلة الأولى للتعليم وترقيتها في المراحل الأخرى. ولا يحبذاختلاط اللغات في تعلمها ، لأن المتعلم سيركن إلى السهولة، ولا يتقن في نهاية الأمر أيا منها . وهذا من أخطر ما يترصد تعليم اللغات، وعواقبه هي دائما وخيمة على اللغات التي يتعلمها .

أما مشكلة الثنائية اللغوية (Diglossie) لاسيما بين العربية والعامية الهجينة - وهي موجودة لدى كثير من الأمم- فحلها يكون على مستوى التعليم الذي يتم بالعربية لا غير،(وهل يعقل تعليم الأصل بالفرع؟) حتى يدرك المتعلم ، تمام الإدراك –وظيفة كلتيهما ، فيستعمل هذه أو تلك في المقام المناسب. وسيساعده كثيرا رصيده من المفردات العامية في تعلم الفصحى ،لأنهاآتية في أكثرها منها .

أ - د. زبير دراقي
جامعة تلمسان